مجلة المرابط

العدد : ١٨٢ الموافق في ربيع أول ١٤١٧ هجري ٨ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : للـــتـــاريـــخ	بقلم : عبد الله البكري

خرج أبو الوليد - سابقا - من عرينه لتأدية فريضة الحج ، فلما قضى مناسكه ، وأراد العودة إلى موطنه رأى سورا من الجند يحول بينه وبين عودته حتى لا يرجع إلى أهله وصحبه ، حيث أحبه مجتمعه لما يرى من صلاحه ، وصدقه ، وإخلاصه ، فهو يضحي ليعمل على إصلاح أمته ورفع مكانتها ، لا يريد علوا في الأرض ، ولا يبغي فسادا ، بعيدا عن شهوة نفسه ، لا يطمح في مكانةٍ ، ولا يرغب في مركز ، ينأى عن الشهرة ، ويبتعد عن الشهوة ، وتعاف نفسه خطام الدنيا من مال وزخرف ، بل هو أكبر من هذا كله ، فالدنيا صغيرة في عينه ، والغنى جزء من نفسه ، والرضا أصل في طبعه ، والقناعة من فطرته ، لا يغضب وإن أُثير ، إنه يملك نفسه عند الغضب ، لا يعرف الغيبة ولا تخطر على باله ، وهذا ما حبّب مجتمعه فيه فقدّمه على غيره.

خاف الآخرون من أبي الوليد ، وخشوا أن يؤول الأمر إليه ، لمحبة المجتمع له ، وإذا ما تمّ ذلك علا شأن صحبه ، وارتفعت مكانة أعوانه ، وخسر خصومُه مواقعهم ، وفقدوا مغانمهم ، وضاعت عليهم شهوتهم ، ولم يبق لهم موضع قدم ، بل ولا لسادتهم في الخارج أعداء الله والأمة. لهذا كله عملوا على إبعاده ، ثم شرّدوا إخوانه من مواطنهم ، فعاشت نخبة الأمة موزعة بعد أن كانت مجتمعة ، وبقيت الرعية من غير موجه ، واشتد عليها الظلم حتى غدت لا تفكر إلا بلقمة تقيها الجوع ، وبسكوت يبعد عنها السكين ، فطمع فيها الأعداء ، وألزموها على الاستسلام ، وأفاد الخصوم من عقول أولئك المشردين ، الذين قدموا إليهم فارين من طغاة بلدانهم وجلادي أمتهم.

عاش أبو الوليد على مقربة من موطنه ، ليبقى قريبا من أهله ومن مجتمعه الذي أحبه ، غير أنه كان في غير أمن على نفسه إذ لا يحميه راعٍ ولا يرغب بمكانه ذو نفوذٍ ، خوفا من أن ينالهم غضبُ قسيسٍ أو عقوبةُ حاخام.

جاءت ذكريات من الماضي ، وهاج شوق الأخوة ، وكان بإمكاني الانتقال فرغبت برؤية أبي الوليد ، فارتحلت إليه ، والتقيت به ، وكان السرور ، فما أجمل ذكريات الدعوة والنشاط! وليتها بقيت كما كانت.

خرجنا في عصر يوم نروّح ما علق في النفس من هموم تحملها كواهلنا فتنوء بها من ثقل ما ألم بالمسلمين من ظلم الطغاة ، وجور البغاة ، وضرب القريب ، وشتم البعيد ، إذ هم هدف سهام الذين

يريدون السيطرة على العالم ، ويرغبون في سلب خيرات الآخرين ، ويحملون شُحنا من الأحقاد على الإسلام ملأت قلوبهم ، وطغت على نفوسهم فلا يستطيعون إلا إظهارها ، ولا يمكنهم التخلص منها ، حيث يثيرها الرهبان إثر كل قضية ، ويشعلها أصحاب المصالح من الساسة ، ويزيد في أوارها أي نجاح يحققه المسلمون ، ويسعى فيها من يبغي الفساد ، ومن تسيطر عليه الشهوة أو يغلبه حبّ الشهرة ، ومن يرغب بالحياة على جثث المسلمين إرضاءً للسادة الكبار.

خرجنا فقادنا السير إلى قلعة كانت في الماضي القريب ذات تاريخ ، تشرف على الديار التي بارك الله فيها ، فتجولنا في جوانبها ، ثم وقفنا على جانبٍ ، وأخذنا نُجيل الطرف في تلك السهول الواسعة التي نشرف عليها ، وقد اتسعت على مدى النظر ، وتناثرت فيها القرى والضياع. وما هي إلا مدة بسيطة حتى سمعنا أصواتاً ترتفع ، وهتافاتٍ تنطلق ، من تجمعاتٍ تصل أصواتها إلينا ، نسمعها أحيانا بوضوح ، وتغيب عن أسماعنا أحيانا ، وأصغينا السمع فإذا بها تهتف لأبي الوليد ، تطالب بالتميّز ، وتدعو إلى حرية الأمة ، والاستعداد للمعركة القادمة ، والدفاع عن العقيدة ، وفسح المجال للتطور الصناعي... وانقضى النهار ، واحتجبت الشمس ، وانتهت التجمعات ، وعدنا إلى دار المبيت.

وبعد مدة ليست طويلة ساقتنا الطريق نفسُها إلى القلعة ذاتها ، فارتقينا برجها ، وأطللنا على تلك الضياع ، فإذا بها صامتة هادئة رغم أن الوقت هو ساعة زحمة العمل ، وضجيج الناس ، وصوت الحركة. فوجدنا أمرا عجبا ، فقلنا: لا بدّ من طارئٍ وقع في هذه القرى ، ورأينا النزول لاستطلاع الأمر ، واستجلاء الوضع.

نزلنا إلى ضيعةٍ فإذا بها كل شيء فيها واجم ، يخاف الرجل من جاره ، والأب من ولده ، ويرهب المرء أخاه الإنسان خوفا من أن يبلغ عنه خبرا مكذوبا ، أو يرى منه تصرفا يسيء به الظن ، فتكون النتيجة وخيمةً لا تُعرف عواقبُها ، ولا يمكن الخلاص منها ، فسوء الظن هو الشائع ، والأخذ به قائم ، والضغط عنيف ، والقسوة لم يعهد بها من قبل. وليس لدى الناس رغبة في العمل ، ولا تتوفر لديهم الوسائل المطلوبة ، رغم خصوبة التربة ، وتوفر المياه ، ونشاط السكان في الماضي ، ويدل عليه الإنتاج الوفير في السابق.

ولا يفكر أحد من الأهالي بالصناعة فاليد وُضعتْ على الإنتاج ، وتأخذ من يأتي بجديد ، وتسرق من يجيد ، وتضرب من يتوسع بالعمل ، فتعطلت الأشغال ، وارتفعت الأسعار ، وفُقدت من الأسواق الحاجيات. والناس في صمت ، لا يجرؤ أحد منهم على إبداء رأي ، أو توجيه كلمة ، فالسيف مصلت ،

والاتهام قائم ، والحكم مسبق.

وجدنا أمراً عجباً فمن يستفيد من هذا الظلم؟ ومن يربح من هذا الكبت؟ ومن يفرح بهذا البغي؟ ومن يكسب من هذه السياسة؟

حاولنا استقراء الوضع ، وسؤال بعض أهل الفكر ، فأبو الوليد له رصيد من الثقة ليس قليلاً ، يرتاح إليه المواطنون ، ويفتحون صدورهم له ، ويبثون شكواهم إليه ؛ جلسنا نستمع إلى أحدهم فقال بكلام يكاد يكون مسموعاً ، بعد أن تلفّت يميناً وشمالاً خوفاً من مُريب ، بل من جدار قد تكون له آذان ، قال: بهذه السياسة ضعف الإنتاج ، وأصبحت بلدتنا سوقا لغيرها من بلدان تلك الجهة ، وأشار بيده جهة الغرب ، فيزداد أولئك غنىً ، ويصيبنا الفقر ، ونضطر إليهم ، ونرتبط بهم. وبهذا الظلم يتحكمون بنا ، وينفّذون ما يريدون ، ويطبقون علينا ما يرغبون... وقد أصبحنا تبعاً لهم بل غدونا نفقد كياننا تدريجياً.

لقد طغت لغتهم على لغتنا حتى أصبحت وأنت في الشارع لا تعرف إن كنت تسير في ديار العرب أم في بلاد الإنجليز ؛ لكثرة اللوحات بلغة المستعمرين ، وإن وجدت إلى جانبها لغتنا فهي في مظهر الضعف كأن صاحبها خجلٌ بها ، أو تُمثّل وضع أهل البلاد ، إذ تقبع في زاوية من اللوحة تعطي معنى التبعية ، وتشير إلى مرحلةٍ من الصغار تمرّ بها أمتنا ، وعقدة من النقص تصيب أهلها.

أصابنا العجب من هذه السياسة ، وعلتنا مظاهر الدهشة غير أن هذا قد زال عندما نظرنا إلى الحراس والنواطير ، والعمد والمخاتير ، الذين يحرسون البلاد من أهلها لغيرهم ، ويشرفون على خيرتها لغير أبنائها ، وإذا هؤلاء الحراس في جلود ثانية غير جلود السكان ، يلبسون ثياب أهل البلاد ، ويتزيّون زيّهم ، ويتحدثون لغتهم ، ولكنهم ليسوا منهم أصلاً ، ولا من عقيدتهم ديناً ، يتظاهرون بالعروبة والإسلام وليس لهم فيهما إلا الاسم والادّعاء.

ثم أبعد أبو الوليد ، وشرد إخوانه ، ومن بقي غاب أو غُيّب ، وفرضت القيود على جميع الملتزمين بعقيدتهم ، ووجهت نحوهم السهام ، وكانوا هدفاً للطغاة وأعوانهم في الداخل وللأعداء الحاقدين في الخارج. وأصبحت النكبات تنزل ، والبلاء يحلُّ على البلدان الإسلامية وينال منها النخبة الواعية ، المتمسكة بمكارم الأخلاق ، الملتزمة بمبادئ الحنيفية.

« وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون »